٢ ـ المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

مقدمة الكتاب

البلد ومناظره ـ العاصمة ـ المنازل ـ الملابس

من المشاهد أن أكثر الخصائص لشمائل أمة وعاداتها وأخلاقها، إنما يرجع إلى الخصائص الطبيعية لإقليم هذه الأمة. فخصائص الإقليم المصري تؤثر ولا شك في أحوال المصريين الأخلاقية والاجتماعية، وهي لذلك تقتضينا كلمة إيضاحية نجمل فيها الآثار العامة؛ أما الآثار الخاصة، فستتجلى في الفصول الآتية من هذا الكتاب

يجري النيل في وادي مصر العليا الشديد الضيق الكثير الريح بين صحراوين جبليتين رمليتين، حتى يجتاز سهول مصر السفلى؛ وهو في مجراه تكتنفه في كل مكان، ما خلا مواضع قليلة منه، حقول زراعية تكونت من خريته؛ وهذه المناطق الزراعية ليست مستوية كل الاستواء لانخفاضها عند الصحراء وارتفاعها قليلاً عند النهر؛ يتخللها غابات من النخل وسلاسل من القرى، وتقطعها ترع عديدة

تصل أمطار الصيف الغزيرة التي تقع في الحبشة وما جاورها من البلاد أرض مصر حول الانتقال الصيفي؛ وعند الاعتدال الخريفي يبلغ النهر أقصى فيضانه، فيُترع النهيرات والقنوات التي تروي الحقول، ويغمر بقاعاً واسعة من الأرض الصالحة للزراعة، ثم يهبط تدريجياً حتى يعود سيرته الأولى. ويحمل النيل معه، وعلى الأخص في وقت الفيضان الغرين (الطمي) الذي يجرفه من البلاد الجبلية حيث ينبع، فيوزع في كل سنة هذا الغرين الوفر على الحقول المنبسطة على جانبيه، بالفيضان

فلما حكم هؤلاء تيمورلنك قضى على فكرة التبشير وحمل أبناء قومه على اعتناق الديانة الإسلامية

وقد نقل الفرنج من سوريا أموراً كثيرة إلى بلادهم. فالفرسان منهم أخذوا عن العرب القوس والطبل والبيرق والرمح. وقد كانت الفروسية في مبدئها عربية أخذها الفرنج عن فرسان العرب الذين كانوا يغيرون على بلادهم خلال العصرين الثامن والتاسع. ويقول سديو المؤرخ الفرنسي: «إن خلال الفروسية الأندلسية وشمائلها الرقيقة كانت مستقى أخذت منه الفروسية النصرانية الكثير من خلالها ورسومها». ويقول فياردو: «إن الفروسية وكل نظمها التي عرفت في الأمم النصرانية كانت مزدهرة عند الأندلسيين أيام الناصر والحكم والحاجب المنصور، وكانت الأندلس في ذلك العصر كعبة يقصدها فرسان النصرانية من كل صوب بعهد سلام وحماية من الخلفاء ليعقدوا المباريات مع فرسان الإسلام. وقد بلغت الفروسية العربية أسمى درجاتها وذروة ازدهارها في مملكة غرناطة التي يفيض تاريخها بأخبار السادة والأمجاد وأحاديث شهامتهم ووفائهم

فالألعاب الفروسية أصلها سباق الجريد المعروف عند العرب، والمبارزة، وما يتبعها من آداب اجتماعية، مثل تقديم المساعدة للمرأة والولد والشيخ العاجز، والوفاء بالوعد، والتجمل بمبادئ الرجولة، والمروءة، والكرم، كل أولئك أشياء معروفة عند العرب الذين كانت طبيعة بلادهم وحياتهم الاجتماعية في صحرائهم المترامية الأطراف وشدة عنايتهم بضروب الفروسية تحملهم على الاعتماد على المساعد المفتولة في بلوغ ما يصبون إليه من صفات الرجولة أكثر من اعتمادهم على شيء آخر. كما نقل الفرنج إلى بلادهم بعض المحصولات النباتية كالسمسم والشمش والبطيخ والذرة والليمون والشمام والقطن والسكر.

هذا عدا أشياء وأمور وعادات شرقية كثيرة انتقلت إليهم عن طريق الأندلس وصقلية. كل ذلك يبرهن على مبلغ التأثير الكبير للحروب الصليبية في حياة الأمم الاجتماعية في الديار الغربية

(فلسطين)

ـ التميمي

الطبيعي أو بالري الصناعي ؛ بينما يرتفع مجراه من تراكم هذا الغرين بدرجة مساوية لارتفاع الحقول . ويعتمد المصريون جميعاً على نهرهم في خصب الأرض ، لأن المطر ظاهرة نادرة جداً في بلادهم ، ما عدا البلاد الواقعة على سواحل البحر المتوسط . ولما كانت الفصول منتظمة كل الانتظام ، فإن الفلاح يمكنه أن يرتب العمل الواجب إنجازه بكل دقة . وعمل الفلاح على الجملة سهل ، ولكن رفع المياه الري شاق متعب !

ومناخ مصر — في معظم السنة — ملائم للصحة إلى درجة تستحق الذكر . غير أن الأبخرة المتصاعدة من الأرض بعد الفيضان تجعل أواخر الخريف أقل ملاءمة للصحة ، فهي تسبب الرمد والديسنطاريا وبعض أمراض أخرى تكون أكثر شيوعاً في الخريف منها في الفصول الأخرى . وتهب فجأة رياح جنوبية حارة تدوم ثلاثة أيام في وقت الخماسين[1] التي تدوم على وجه التقريب خمسين يوماً تبدأ في شهر أبريل وتنتهي في آخر مايو ؛ وتلك الرياح يندر أن ترتفع منها الحرارة فوق ٩٥ درجة فاهرنهايت في الوجه البحري ، أو ١٠٥ درجة[2] في الوجه القبلي ؛ إلا أنها تكرب الأنفاس وتضيق الصدور . وفي الصيف يفد الطاعون إلى مصر ، ويكون أشد خطراً في مدة الخماسين . ومصر ممرضة أيضاً في الربيع وفي الصيف لريح السموم ، وهي أشد وطأة من رياح الخماسين ، ولكنها أقصر مدة ، إذ يندر أن تدوم أكثر من ربع ساعة أو عشرين دقيقة ؛ وهي تهب عامة من الجنوب الشرقي حاملة معها سحباً من الغبار والرمال . وتتراوح الحرارة في منتصف الشتاء بعد الظهر في الوجه البحري بين الخمسين والستين درجة في الظل . أما في أشد الفصول حرارة فتتراوح بين التسعين والمائة درجة . ويزيد على ذلك حوالي عشر درجات في مناطق الصعيد الجنوبية . على أن حرارة الصيف مهما بلغت شدتها قلما تضايق النفس ، لأن النسيم الشمالي يلطفها ، ولأن المناخ شديد الجفاف . إلا أن هناك مصدراً كبيراً للضيق يصيبه ذلك الجفاف ، وهو كثرة الغبار . وهناك أوبئة أخرى تقلل كثيراً من الراحة التي يتمتع بها المصريون وضيوفهم في هذا المناخ البهيج . ويكثر الذباب في الربيع والصيف والخريف كثرة مزعجة أثناء النهار . أما في الليل فينتشر البعوض انتشاراً يقض المضاجع ما لم يتقه النائم بالكلة . وعلاوة على أثناء الفصل الحار كل المنازل ذات الأثاث الخشبي . ولا يمكن تجنب القمل في أي فصل ، ولكن من السهل التخلص منه . أما البراغيث فتكثر في الشتاء كثرة مزعجة

ومناخ الصعيد أكثر ملاءمة للصحة من الريف وإن كان أشد حرارة . وقلما ينتشر الطاعون فيما وراء القاهرة . وهو أكثر انتشاراً في مناطق المستنقعات القريبة من البحر المتوسط . وفي أثناء السنين العشر الأخيرة ، قبل زيارتي الثانية لمصر ، لم تحدث غير إصابات قليلة جداً ، إلا في الأقاليم السابقة الذكر ؛ وهذه لم يكن الوباء فيها شديداً[1] ، لأن البلاد تحسن صرف مياهها ، وأدخلت فيها نظم الحاجر الصحية لمنع دخول هذا المرض من بلاد أخرى أو لوقفه . والرمد أكثر انتشاراً في الوجه البحري منه في الأقاليم الجنوبية . وهو يحدث عامة من العرق ؛ ولكن ضرره يتفاقم من الغبار ومن أسباب كثيرة أخرى . وقلما يستفحل خطر هذا المرض إذا أسرع المرضى في استعمال الدواء ، ولكن كثيراً من الوطنيين لجهلهم طريقة العلاج ، أو لإصرارهم على تفويض الأمر للقدر ، يفقدون البصر كله أو بعضه

وكثيراً ما سألني السائلون هل في مصر معمرون ؟ ومن المحقق أن قليلاً من أهل هذا البلد من يبلغ السن العالية ؛ ولكن من

(١) أنظر هامش الفقرة الأولى فصل ٢٦

(٢) هذه هي الحرارة في الظل وقد لاحظت في مدينة طيبة أن ميزان الحرارة يرتفع إلى ما فوق ١١٠ درجة في الظل أثناء ريح خماسين

(١) هذه الملاحظة كتبت قبل طاعون سنة ١٨٣٥ الهائل الذي دخل من تركيا وانتشر في كل أنحاء مصر ، ولو أن آثاره لم تكن عظيمة في الأقاليم الجنوبية . وقد أهلك ما لا يقل عن عامين ألف نفس في القاهرة ، أي ثلث السكان ، وأزيد بكثير على ما أعتقد من مائتي ألف في كل مصر . وطبقاً لتقرير حكومي بلغ عدد ضحايا هذا الوباء حوالي أربعين ألفاً في القاهرة . ولكن أخبرني جهة رسمية عليا أن الحكومة جرت في هذه الحالة على قاعدة تقرير نصف عدد الأموات فقط

النادر أن يبلغ المرء هذه السن فى بلدنا دون أن يصاب مراراً بمرض مميت لولا عناية الطب التى لا ينالها إلا النزر القليل فى مصر . وحرارة الصيف تنهك الجسم ولكنها تدفع المصريين إلى الإفراط فى الملذات الشهوانية . وخصوبة الأرض تولد الكسل ، فيكتفى المصرى بالقوت القليل ، وهذه الكفاية يحصل عليها بأدنى سعى وأقل مشقة

والعاصمة المصرية الحديثة التى يشغل الحديث عن سكانها أكثر صفحات هذا الكتاب، تسمى الآن « مَصر[1] » أو باللفظ الأفصح « مِصر » ؛ ولكنها كانت تسمى من قبلُ القاهرة فصحفها الأوربيون إلى « كايرو » . وموقعها عند مدخل الصعيد فى منتصف المسافة بين النيل وسلسلة المقطم الشرقية ، وبينها وبين النهر بقعة صالحة للزراعة فى أكثر أجزائها . يزيد عرضها على ميل فى المناطق الشمالية (حيث يقع ميناء بولاق) ، ولكنها فى الجنوب أقل من نصف ميل . ومساحة العاصمة تبلغ تقريباً ثلاثة أميال مربعة . وقد أحصى عدد سكانها أثناء زيارتى الثانية فبلغ زهاء مائتين وأربعين ألفاً ؛ وقد زاد هذا العدد بعد ذلك كثيراً بسبب إنقاص عدد الجيش ولأسباب أخرى . والقاهرة محاطة بسور تقفل أبوابه ليلاً ، وتشرف عليها قلعة كبيرة تقع فى زاوية من المدينة بالقرب من الجبل ، وشوارعها ليست مبلطة وأكثرها ضيق غير منتظم ، وهى أحرى بأن تسمى أزقة

وتبدو القاهرة للأجنبى العابر فى شوارعها مدينة ضيقة جداً تغص بالسكان ؛ ولكن الحال تختلف فى نظر من يشرف على المدينة من سطح منزل أو من مأذنة مسجد . وأكبر الشوارع يكون فيه عادة صف من الحوانيت على كل جانب ، وفوق الحوانيت غرف لا تتصل بها ، وقلما تكون مشغولة بمستأجرى الدكاكين وتوجد على أيمان الشوارع الكبيرة وعلى شمائلها دروب وحارات ، وأغلب الدروب طرق مزدوجة لكل منها بوابة من الخشب كبيرة على مدخليها تقفل ليلاً ، ويحرسها بواب من الداخل يفتح لكل من يطلب الدخول . أما الحارات فغالباً ما تتكون من عطفات صغيرة لها مدخل عام واحد ذو بوابة تقفل كذلك ليلاً ، ولكن أكثرها يشقها درب من أولها إلى آخرها

ولا بد لى من وصف دور العاصمة ، وهذه الصورة التى أمامك تعطيك فكرة عامة عن خارج تلك المنازل . وتبنى

شكل ١ — (منزل فى القاهرة)

الجدران الأساسية فى الطابق الأول خارجاً وداخلاً من الحجر الجيرى الناعم ، يقطعونه من الجبال المجاورة . وعند ما يقطع الحجر يكون سطحه ذا لون ضارب إلى الصفرة الخفيفة ، ولكن لونه سريعاً ما يقتم . وتلون خطوط الواجهة أحياناً بالحمرة والبياض على التعاقب خصوصاً فى المبانى الكبيرة كما هو الحال فى أكثر المساجد[1]

(١) هذا هو الاسم الذى يطلقه المصريون المحدثون على بلدهم كما يطلقونه على عاصمة بلدهم

(١) طريقة تزيين الدور أصبحت أعم بكثير مما كانت عليه قبلا بناء على أمر الحكومة طلبت فيه من السكان الاحتفال بقدوم إبراهيم باشا من سورية . وبعد ذلك بسنوات كان سكان القاهرة يأمرون بتبييض طبقات منازلهم العليا ؛ فتشوش هذا منظر المدينة الجميل ، لأن التباين بين بياض الجدران وسواد أخشاب النوافذ القديمة أحدث تأثيراً غير جميل

ويظهر الشارع فى الصورة (شكل ١) أوسع مما هو فى الواقع فإن النوافذ البارزة على جانبى الطريق تكاد تتقابل فتحجب الشمس تقريباً وتحدث رطوبة مقبولة فى الصيف